الشيء الملفَّف!

قال عبد الله بن معاوية:

رأيت فُضيــلا كان شيــئًا ملفّفًــا — فكشّـفه التمحيــص حتى بدا ليــا
أأنت أخي ما لم تكن لِيَ حـــاجة — فإن عَرَضتْ أيقنــتُ أنْ لا أخا ليــا
كِلانا غنـــيٌّ عن أخيـــه حيـــاتَه — ونحن إذا متنـــا أشــدّ تغانيـــا

احتفى أهل الأدب والمنتخبات بهذه القطعة الجميلة، فَأَتَتْ في حماســةِ أبي تمّام، والحماسة البصرية، وذكرها المبرّد في الكامل، وابن قتيبة في عيون الأخبار وغيرهم، واستحسان هؤلاء دليلٌ كافٍ على جودتِها لفظًا، ومعنى! غير أنّ تمحيص "ابن معاوية" لم يرُق لي! إذ ما كان من حقّ فُضيل أنْ يُمحَّص بهذه القسوة!

ســامحك الله يا ابن معاوية! ما الذي دعاك لتمحّص فُضـيلًا؟ لو تركته ملفّفًا كما كان، لاستمتعت بأخوّته دهرًا! فلم يُخلق الأصدقاء للتمحيص، والتكشيف، والبحث عن خفاياهم؛ وإنّما لنخوض هذا البحر الخضم الذي اسمه الحياة بمساعدتهم!

كم ســيغرق في هذا البحر من متهوّك أحرق زورقه لرداءة خشــبه! وما علم أنّ مَهمّة الزورق إيصالُه إلى الشاطئ، فإنْ فعل ذلك فقد أدّى ما عليه!

كُلّنا ذلك الشـــيء الملفّف يا ابن معاوية! فإذا ما مُحّصـــنا ظهر عوارُنا، (وأيّ الرجال المهذّب؟) على رأي نابغة ذبيان..

ولو أنّ فُضيلا سبقك في مهمّة التمحيص، لرأى منك ما رأيت منه وزيادة!

وأنت أخي القارئ، دعني ألتفت إليك وأحادثك، فقد شـــبع معاوية وفضـــيل موتًا ــرحمهما الله ــ وقد باتا (أشدّ تغانيا) كما تنبّأ ابنُ معاوية:

لا تجعل التمحيص من مهامّك في الحياة، بل ارْضَ من صاحبك بما طاوعت به نفسُه، وأتى رضيّا سهلًا، لا كلفة فيه ولا تنطّع، كما قال الكميت الأوسط:

ألا إنّ خير الودّ ودّ تطوّعــتْ — به النفس لا ودّ أتى وهو متعبُ

وهذا من معاني قول الحقّ سبحانه: "خُذِ الْعَفْو" خذ ما سمحت به نفسُ صاحبِك، وهان عليه بذلُه، ودع ما سوى ذلك، ولا تُكْرهه على ما لم تسمح به نفسه!

وما فتّش أحدٌ عن (الشيء الملفّف) فأفلحَ!

فهذا معاوية بن أبي سفيان، وليس صاحبَنا "ابنَ معاوية" سأل الأحنف بن قيس عن: الشيء الملفف في البجاد! الذي ذكره الشاعر في قوله:

إذا ما مات ميْتٌ من تميم فسرّك أن يعيش فجئ بزاد
بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمن أو الشيءِ الملفّف في البجاد

فقال الأحنف: هي السخينة يا أمير المؤمنين! والسخينة طعام تُعيّر به قريش! فلو لم يمحّص معاوية، لم تخرج السخينة من ذلك البجاد الملفف!

فدع ما لُفّف مكانَه، وانصرف إلى ما لم يلفّف من الأيام الجميلة التي جمعتك بصاحبِك، وذكريات ليالي الأنس، ومواقف الرجولة.

وعلامة كون التكشيف والتمحيص من السوء أنّه لا يزاولُه صاحبُه إلّا مُغضبًا، وأنّه لا (يشرّف) إلا بحضرة أبي مرّة!

وهذا ابن معاوية يذكر في آخر مقطوعته (موضوع المقالة) كلمة السرّ التي جعلته يلجأ إلى ما واراه فضيلٌ ولفّفه فقال:

فعينُ الرّضى عن كلّ عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عينَ السّخط تُبدي المساويا

إذن هو السُّخط! هو الغضب! هو أبو مرّة بشحمه ولحمه! هي هذه الكوكبة غير المباركة من دعاك إلى التمحيص! وكشْفِ الشيء الملفف!

وصدق نبيّ الهدى ﷺ إذ قال: "**لا تغضب**"!

وما أشرف ما قاله الشريف الرضيّ وهو يتحدّث عن "فُضيلِه" الذي لم يمحّصه:

ولو أنني كشّفتُه عن ضميره أقمتُ على ما بيننا اليومَ مأتما
إذا العضوُ لم يؤلِمْك إلا قطعتَه على مضضٍ لم تُبقِ لحمًا ولا دما

فلا تكن الصديقَ الذكيَّ جدًّا، الذي يراقب رسائله لصاحبه، هل قرأها؟ ومتى قرأها؟ ثم لماذا لم يبادر بالرد؟

لا تمثّل دور الشُّرطي في علاقة روحيّة بحتة لا تعترف بقسائم المخالفات!

لا تفرك وردة لم يُخلق عطرها لتفركه، وإنّما لتستنشقه!

لا تتعامل مع "روح" وكأنّها سلعة استهلاكيّة خرجت من قالب التشكيل، وهي متّجهة إلى مرحلة التغليف ثم التوزيع في نقاط البيع!

لا تبلُ أخبارَ من أحبّك بصدق، فتخرج لك أضغانُه، وتقلبّاتُ مزاجه، وفواتيره الخاصّة التي لم يطلبك يومًا أن تشاركه في سدادها!

الإنسان قارّة من الأحاسيس، نعم، لن ترى في صيفه المطر، ولكن انتظره، فسوف تبتسم لك أزاهيرُه في الربيع!

وردد معي قول بشّار بن بُرد:

فعش واحدًا أو صل أخاك فإنّه مقارف ذنب مرّة ومجانبـــــــــه

علي بن جابر الفيفي
١٤/ شوال/١٤٤١هـ